المطلب الخامس

تاريخ المذهب العقلي وظهور الجهمية

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد .

فقد تحدثنا في المطلب السابق عن منهج الصحابة والتابعين في فهم القرآن والسنة، وبينا مراتب الناس في تصديق الخبر، سواء كانت لغير المسلمين، وهي الوهم والشك والظن، أو كانت للمسلمين، وهي علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين.

وعلمنا بالدليل النقلي موقف الصحابة ﷺ من خبر الله ورسوله ﷺ، وأنهم كانوا يصدقونه تصديقا كاملا ينفي الوهم والشك والظن، وأن موقفهم في باب الأمر والطلب، أنهم كانوا ينفذونه تنفيذا كاملا، وكانوا يتقلبون في إيمانهم بين مراتب اليقين.

كما تحدثنا عن الإيمان، وأنه في باب الأخبار له ستة أركان، وفي باب الأمر له ثلاثة أركان، وأن اليقين المنافي للشك شرط من شروط كلمة التوحيد والإيمان، ثم بينا معنى الإيمان في حديث سفيان؟

وفي هذا المطلب إن شاء الله نتناول الحديث عن تاريخ المذهب العقلي

في الإسلام، وكيف ظهرت بدعة الجهمية، وأثرت في ظهور الفرق والتنازع بين الطوائف الإسلامية؟ وذلك من خلال المحاور التالية:

- **بدعة الجهمية وظهور المدرسة العقلية**

أساس البلاء والشقاء، وحامل لواء مقدمي العقل والآراء على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، رجل يدعى الجهم بن صفوان الخرساني الذي توفى في نهاية الربع الأول من القرن الثاني الهجري [(١)].

وكان الجهم (ت:١٢٨هـ) متحذلقا كثير الكلام والجدال، ولم يكن له علم، ولا مجالسة لأهل العلم، بل كلامه وجداله أساسه التفلسف في الرأي، والسفسطة بالهوى. ويذكر العلماء أن الجهم بن صفوان استمد فكره من طريقين:

أحدهما: طريق يهودي.

والآخر: طريق وثني.

---

(١) انظر ترجمته في أقاويل الثقات في تأويل الأسماء والصفات والآيات المحكمات والمشتبهات لمرعي بن يوسف الكرمي المقدسي ص٢٣٠. وإثبات صفة العلو لابن قدامة ص١٣١. وإيثار الحق على الخلق في رد الخلافات إلى المذهب الحق من أصول التوحيد لمحمد القاسمي ص٢٨٩. والتحفة المدنية في العقيدة السلفية لحمد آل معمر ص١٦٦. والرد على القائلين بوحدة الوجود لعلي الحنفي ص٣٠. والفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم ١٠٥/٣. وشرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي ص٢٩٣. ومقالات الإسلاميين واختلاف المصلين لأبي الحسن الأشعري ص٥٤٢. والبداية والنهاية لابن كثير ٣٥٠/٩.

فقد تربّى الجهم بن صفوان على يد أستاذه الجعد بن درهم، وهو رجل من المنكرين لأوصاف الله بحجة نفي التشبيه والتجسيم، أخذ جل أفكاره وآراءه عن أبان بن سمعان، الذي كان تلميذا لطالوت بن أخت لبيد بن الأعصم، وهو الساحر اليهودي الذي سحر النبي ﷺ في مشط ومشاطة.

قال ابن تيمية: (أصل مقالة التعطيل للصفات، إنما هو مأخوذ عن تلامذة اليهود والمشركين وضلال الصابئين، فان أول من حفظ عنه أنه قال هذه المقالة في الإسلام، أعنى أن الله سبحانه وتعالى ليس على العرش حقيقة، وأن معنى استوى بمعنى استولى، ونحو ذلك، هو الجعد بن درهم، وأخذها عنه الجهم بن صفوان وأظهرها، فنسبت مقالة الجهمية إليه. وقد قيل: إن الجعد أخذ مقالته عن أبان بن سمعان، وأخذها أبان عن طالوت بن أخت لبيد بن الأعصم، وأخذها طالوت من لبيد بن الأعصم اليهودي، الساحر الذي سحر النبي ﷺ. وكان الجعد بن درهم هذا فيما قيل: من أهل حران. وكان فيهم خلق كثير من الصابئة والفلاسفة، بقايا أهل دين نمرود والكنعانيين، الذين صنف بعض المتأخرين في سحرهم) [١].

وقد تجلى حقد اليهود بعد هزيمتهم، والقضاء عليهم، في إقدامهم على إيذاء النبي ﷺ بسحرهم، وطرقهم المعهودة في الغدر، والوقيعة بين

---

(١) مجموع الفتاوى ٥/٢٠.

أبناء الأمة حتى حدثت الفتنة التي قتل فيها الخليفة الراشد أمير المؤمنين عثمان بن عفان ﷺ .

روى الإمام البخاري من حديث عَائِشَةَ رَضِيَ الله عَنْهَا أنها قَالتْ: (سَحَرَ رَسُول اللهِ ﷺ رَجُل مِنْ بَنِي زُرَيْقٍ، يُقَال لهُ لبِيدُ بْنُ الأعْصَمِ، حتى كَانَ رَسُول اللهِ ﷺ يُخيَّل إِليْهِ أَنَّهُ كَانَ يَفْعَل الشَّيْءَ، وَمَا فَعَلهُ، حتى إِذا كَانَ ذاتَ يَوْمٍ، أَوْ ذاتَ ليْلةٍ وَهُوَ عِنْدِي، لكِنَّهُ دَعَا وَدَعَا، ثمَّ قَال: يَا عَائِشَةُ، أَشَعَرْتِ أَنَّ اللهَ أَفْتَانِي فِيمَا اسْتَفْتَيْتُهُ فِيهِ، أَتَانِي رَجُلان، فَقَعَدَ أَحَدُهُمَا عِنْدَ رَأْسِي، وَالآخَرُ عِنْدَ رِجْليَّ، فَقَال أَحَدُهُمَا لصَاحِبِهِ: مَا وَجَعُ الرَّجُلِ؟ فقَال: مَطْبُوبٌ، قَال: مَنْ طَبَّهُ؟ قَال: لبِيدُ بْنُ الأَعْصَمِ، قَال: فِي أَيِّ شَيْءٍ؟ قَال: فِي مُشْطٍ وَمُشَاطَةٍ، وَجُفِّ طَلعِ نَخْلةٍ ذكَرٍ، قَال: وَأَيْنَ هُوَ؟ قَال: فِي بِئْرِ ذرْوَانَ، فَأَتَاهَا رَسُول اللهِ ﷺ فِي نَاسٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَجَاءَ فَقَال: يَا عَائِشَةُ، كَأَنَّ مَاءَهَا نُقَاعَةُ الحِنَّاءِ، أَوْ كَأَنَّ رُءُوسَ نَخْلهَا رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ، قُلتُ: يَا رَسُول اللهِ، أَفَلا اسْتَخْرَجْتَهُ؟ قَال: قَدْ عَافَانِي اللهُ، فكَرِهْتُ أَنْ أُثوِّرَ على النَّاسِ فِيهِ شَرًّا، فَأَمَرَ بِهَا فَدُفِنَتْ) (١).

وقول عائشة رضي الله عنها أنه ﷺ كان يخيل إليه أنه كان يفعل الشيء وما فعله، تقصد الجماع وتأثره في قدرته على المعاشرة حيث

---

(١) رواه البخاري في كتاب الطب، باب السحر ٥/٢١٧٤ (٥٤٣٠)، ومسلم في كتاب السلام، باب السحر ٤/١٧١٩ (٢١٨٩).

يظن النبي ﷺ أنه على جنابة والأمر ليس كذلك. وفي رواية أخرى عند البخاري: (فَقُلتُ: اسْتَخْرَجْتَهُ؟ فَقَال: لا، أَمَّا أَنَا فَقَدْ شَفَانِي اللهُ، وَخَشِيتُ أَنْ يُثِيرَ ذلكَ على النَّاسِ شَرًّا، ثمَّ دُفِنَتِ البِئْرُ) (١).

ذلك السحر إنما صدر عن حقد يهودي، امتد ليفرق كلمة الأمة بظهور عبد الله بن سبأ اليهودي، ثم امتد ليصل إلى الجعد بن درهم وتلميذه الجهم بن صفوان، فعقائد الجهم ونظرياته إنما هي تشكيك في العقيدة، واعتراض على الوحي، استقاها من أسس يهودية بعيدة كل البعد عن منهج الصحابة في العقيدة الإسلامية.

- **مناظرة الجهم بن صفوان للسمنية.**

وأما الطريق الثاني الذي استمد منه الجهم بن صفوان فكره فهو طريق وثني، ظهر إثر احتكاكه بالمشركين، فالجهم لقي أناسا من المشركين، يقال لهم السمنية، نسبة إلى قرية بالهند تسمى سُومَنَات. وهي فرقة تعبد الأصنام، وتقول بتناسخ الأرواح، وتنكر الوحي والدين، جرت بينهم وبين الجهم مناظرة عقلية.

لما عرفوا الجهم قالوا له: نكلمك ونناظرك، فإن ظهرت حجتنا عليك، دخلت في ديننا، وإن ظهرت حجتك علينا، دخلنا في دينك، فكان مما كلموا به الجهم أن قالوا له: ألست تزعم أن لك إلها؟ قال الجهم: نعم. قالوا له: فهل رأيت إلهك؟ قال: لا. قالوا: فهل سمعت

---

(١) رواه البخاري في بدأ الخلق، باب صفة إبليس وجنوده ٣/١١٩٢ (٣٠٩٥).

كلامه؟ قال: لا. قالوا: فهل شممت له رائحة؟ قال: لا. قالوا: فوجدت له حسا؟ قال: لا. قالوا: فما يدريك أنه إله؟ فتحير الجهم، فلم يدر من يعبد أربعين يوما [(١)].

وقد استدرك الجهم بن صفوان حجة كحجة النصارى، الذين يزعمون أن الروح الذي في عيسى هو الله، وأن الله يحل فيه، فإذا أراد الله أمرا، دخل في عيسى فتكلم على لسانه، فيأمر بما يشاء، وينهى عما يشاء، وهو روح غائبة عن الأبصار، فاستدرك الجهم حجة مثل هذه الحجة، وقال لمن ناظره من السمنية: ألست تزعم أن فيك روحا؟

قال السمني: نعم، فقال له: هل رأيت روحك؟ قال: لا. قال: فسمعت كلامها؟ قال: لا، قال: فوجدت لها حسا؟ قال: لا. قال: فكذلك الله لا يرى له وجه، ولا يسمع له صوت، ولا يشم له رائحة، وهو غائب عن الأبصار، وهو في كل مكان، فالمخلوقات بمثابة الجسد، والله ﷻ في داخلها بمثابة الروح [(٢)].

شككوه في دينه حتى ترك الصلاة أربعين يوما، وقال: لا أصلي لمن لا أعرفه. ثم اشتق هذا الكلام، فأنكر عليه الوالي فقال: إذا ثبت

---

(١) انظر الرد على الزنادقة والجهمية لأحمد بن حنبل (١/١٩) نشر المطبعة السلفية، وبيان تلبيس الجهمية لابن تيمية (١/٣١٨)، ومجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية (٤/٢١٨)، ودرء التعارض لابن تيمية (٢/٤٠٩).

(٢) السابق ١/١٩.

عندي من أعبده صليت له، فضرب عنقه [١].

قال أبو معاذ البلخي: (كان جهم على معبر ترمذ ـ بلد من نواحي إيران ـ وكان رجلا كوفي الأصل، فصيح اللسان، لم يكن له علم، ولا مجالسه لأهل العلم، وكان قد تناقل كلام المتكلمين، وكلمه السمنية، فقالوا له: صف لنا ربك الذي تعبده؟ فدخل البيت لا يخرج كذا وكذا، ثم خرج عليهم بعد أيام فقال: هو هذا الهواء، مع كل شيء، وفي كل شيء، ولا يخلو منه شيء) [٢].

• الرد السلفي على شبهة السمنية.

وكان يكفي الجهم بن صفوان في الرد على السمنية أن يقول: إن الله يُرى في الآخرة، ولا يُرى في الدنيا؛ لأنه اختبرنا فيها، وابتلانا بها فاستخلفنا في أرضه، واستأمننا في ملكه، فلو رأيناه، أو رأينا ملائكته، أو رأينا جنته أو عذابه دون حجاب، لما كان لقيام السماوات والأرض بهذه الكيفية، أو بهذا الوضع الذي فطرنا عليه أي معنى يذكر، ولذلك قال الله ﷻ: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ ﴾ الملك:٢.

---

(١) الوافي بالوفيات للصفدي (١١/١٦١) نشر دار إحياء التراث، بيروت.

(٢) شرح أصول اعتقاد أهل السنة اللالكائي ٣/٣٨٠ (٦٣٥) نشر دار طيبة، والعلو للعلي الغفار للذهبي (١/١٥٥) نشر مكتبة دار السلف بالرياض، والأسماء والصفات للبيهقي (٢/٣٣٧)، إيضاح الدليل في قطع حجج أهل التعطيل لابن جماعة ص٣٤ نشر دار السلام.

وقال تعالى أيضا: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾﴾ إبراهيم:١٩، فكيف يتحقق معنى الابتلاء أو الإيمان بالله ونحن نراه؟

وإذا كان الله ﷻ لا يرى في الدنيا ابتلاءا، فإنه يرى في الآخرة جزاء وإكراما لأهل طاعته، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ القيامة:٢٢/٢٣، وقد تواترت الأحاديث النبوية الصحيحة في إثبات رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة.

ومن ثم فإن العلة في عدم إدراك الكيفية ليست عدم وجودها ولا استحالة رؤية الله ﷻ، ولكن العلة قصور الجهاز الإدراكي البشري في الحياة الدنيا عن إدراك حقائق الغيب، فقد خلق الله الإنسان بمدارك محدودة لتحقيق علة معينة تمثلت في حقيقة الابتلاء كما قال ﷻ: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٢﴾﴾ الإنسان:٢.

وما يعنينا الآن أنه بهذا الفكر العقلي الخبيث الذي زعم به الجهم بن صفوان أن الله ﷻ حل في مخلوقاته، وهو بذاته في كل مكان، نظر في كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فما توهم بظنه السيئ أنه يوافق رأيه من النصوص احتج بها، وما توهم أنه يخالف مذهبه منها، أنكرها وعطلها عن مدلولها، وإن كانت تلك النصوص من السنة الصحيحة فالويل لها منه، فقد اتهمها بأنها أمور ظنية وآحاد مروية لا تدل على اعتقاد، فوجد قوله تعالى:

﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ ﴾ الحديد:٤. فأخذه حجة لرأيه في الحلول والاتحاد. وكذلك قول الله تعالى: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ ﴾ الأنعام:١٠٣. فبنى عليه نفي صفات الله وتعطيلها.

ووجد قوله ﷻ: ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ﴿٥﴾﴾ طه:٥. وقوله تعالى: ﴿ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ ﴾ المعارج:٤. يخالف ما ذهب إليه من القول بالحلول. ماذا صنع الجهم بتلك النصوص؟

قال أبو نعيم البلخي وكان قد أدرك جهما: (كان للجهم صاحب يكرمه ويقدمه على غيره، فإذا هو قد هجره وخاصمه، فقلت له: لقد كان يكرمك، فقال: إنه جاء منه ما لا يتحمل، بينما هو يقرأ سورة طه والمصحف في حجره، إذ أتى على هذه الآية : ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ﴿٥﴾﴾ طه:٥. قال: لو وجدت السبيل إلى أن أحكها من المصحف لفعلت، فاحتملت هذه. ثم إنه بينما يقرأ آية أخرى إذ قال: ما أظرف محمدا حين قالها. ثم بينما هو يقرأ القصص والمصحف في حجره، إذ مر بذكر موسى عليه السلام فدفع المصحف بيديه ورجليه، وقال: أي شيء هذا؟ ذكره هنا فلم يتم ذكره، وذكره هنا فلم يتم ذكره!) [(١)].

(١) كتاب السنة لعبد الله بن أحمد بن حنبل ١/١٦٧ (١٩٠) نشر دار ابن القيم بالدمام، وانظر اجتماع الجيوش الإسلامية لابن القيم ص١٤٠ نشر دار الكتب العلمية بيروت، والعلو للعلي الغفار للإمام الذهبي ص١٥٤.

وقد أخذ الجهم بن صفوان كما ذكرنا مقالة التعطيل عن أستاذه الجعد بن درهم، الذي قال بنفي أوصاف الله ﷻ، وعطل الآيات عن مدلولها وقال بخلق القرآن.

قال أبو القاسم اللالكائي: (ولا خلاف بين الأمة، أن أول من قال القرآن مخلوق، جعد بن درهم، ثم جهم بن صفوان) [1].

والجهم بن صفوان إليه تنسب طائفة الجهمية، وهم الذين قالوا لا قدرة للعبد أصلا، بل هو بمنزلة الجمادات، والجنة والنار تفنيان بعد دخول أهلهما، حتى لا يبقى موجود سوى الله تعالى.

وقال أبو الحسن الأشعري: (قول الجهمية الذي تفرد به جهم، القول بأن الجنة والنار تبيدان وتفنيان، وأن الإيمان هو المعرفة بالله فقط، والكفر هو الجهل به فقط، وأنه لا فعل لأحد في الحقيقة إلا لله وحده، وأنه هو الفاعل، وأن الناس إنما تنسب إليهم أفعالهم على المجاز، كما يقال: تحركت الشجرة، ودارت السفينة، وزالت الشمس، وإنما فعل ذلك بالشجرة والسفينة والشمس الله سبحانه وتعالى، وكان جهم ينتحل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) [2].

---

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ٢/٣١٢.

(٢) مقالات الإسلاميين لأبي الحسن الأشعري ص ٢٧٩، نشر دار إحياء التراث العربي، وانظر بيان تلبيس الجهمية لابن تيمية ١/٤١٩، وإيضاح الدليل في قطع حجج أهل التعطيل لابن جماعة ص٣٤.

وكان جهم يقف على الجذامى ويشاهد ما هم فيهم من البلايا ويقول: (أرحم الراحمين يفعل مثل هذا) [١]. وهو يعني أنه ليس هناك رحمة في الحقيقة، ولا حكمة، وأن الأمر راجع إلى الجبر، وإلى محض المشيئة الخالية عن الحكمة والرحمة.

وقد قتل الجعد بن درهم حدا لكفره الصريح بآيات الله وتكذيبها، فقد قتله خالد بن عبد الله القسري أمير بلاده في يوم عيد الأضحى، بعد أن استفتى علماء زمانه، حيث خطب الناس وقال: ضحوا تقبل الله ضحاياكم، فإني مضح بالجعد بن درهم؛ فإنه يزعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلا، ولم يكلم موسي تكليما، ثم نزل فذبحه، وكان ذلك بعد أن استفتى علماء زمانه من السلف الصالح [٢].

ويذكر الذهبي: (أن الجعد بن درهم هو أول من ابتدع بأن الله ما اتخذ إبراهيم خليلا، ولا كلم موسى تكليما، وأن ذلك لا يجوز على الله. قال المدائني: كان زنديقا. وقال له وهب: إني لأظنك من

(١) انظر مجموع الفتاوى ٤٦٠/٨، ومنهاج السنة النبوية ٣٢/٣، نشر مؤسسة قرطبة، وإغاثة اللهفان من مصائد الشيطان لابن القيم ١٧٧/٢.

(٢) ذكر ذلك اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ٣١٩/٢. والدارمي في الرد على الجهمية ٢٠٩/١، نشر دار ابن الأثير، الكويت. والبخاري في خلق أفعال العباد ٢٩/١. وانظر العلو للعلي الغفار للذهبي ١٣١/١. وأقاويل الثقات في تأويل الأسماء والصفات والآيات المحكمات للكرمي ص٧٧. وسير أعلام النبلاء للذهبي ٤٣٢/٥.

الهالكين، لو لم يخبرنا الله أن له يدا، وأن له عينا، ما قلنا ذلك، ثم لم يلبث الجعد أن قتل وصلب) [١].

أما الجهم بن صفوان انتقل إلى ترمذ أحد البلدان في إيران، وبدأ الدعوة لمذهبه، فانتشرت فيها عقائد الإنكار والتعطيل لكلام الله. ثم وجد لدعوته أتباعا ومريدين من العامة والدهماء في مدن أخرى من مدن إيران. ثم انتشرت أفكاره في بغداد وبقية البلدان. فالجهمية فرقة ظهرت في أواخر الحكم الأموي، ومؤسسها الجهم بن صفوان الترمذي السمرقندي. وقد مات مقتولا، قتله سالم بن الأحوز في آخر أيام الدولة الأموية [٢].

وقد تفرعت من فرقة الجهمية فرق عديدة، انقسمت إلى أكثر من عشر فرق، كل فرقة اتخذت لنفسها مسلكا فكريا خاصا، وعقيدة مستقلة، لكن أبرز عقائد الجهمية، هي القول بنفي صفات الله ﷻ، وأن الإنسان لا يقدر على شيء، وهو مجبور مسير، مقهور في فعله، لا يوصف بالاستطاعة والقدرة، وأن الجنة والنار تفنيان، وأن الإيمان هو معرفة الله حتى لو كفر الإنسان باللسان، وقالوا أيضا: بأن القرآن مخلوق [٣].

---

(١) تاريخ الإسلام للإمام الذهبي ٣٣٨/٧،نشر دار الكتاب العربي، بيروت،

(٢) الوافي بالوفيات للصفدي ١٦٠/١١. وفيات الأعيان لابن خلكان ١٢٣/٥، الملل والنحل للشهرستاني ٢٠/١.

(٣) التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية لطاهر الإسفراييني ص١٠٧ :١٠٨.

والقصد مما سبق أن الجهم بن صفوان زعم أن من وصف الله بشيء مما وصف به نفسه في كتابه أو في سنة رسوله ﷺ فهو مشبه، وأن التوحيد يكمن في نفي هذه الصفات، متمسكا في زعمه كسائر أتباعه الجهمية من المعتزلة والأشعرية بقول الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ الشورى:١١. سواء كان النفي نفيا واضحا، أو كان بتأويل القرآن على غير معناه، ولي أعناق النصوص بغير ما تحتمل، فزعم الجهم أن الله في كل مكان كما الروح في الجسد.

وهذا كلام باطل من جميع الوجوه، لأن الله سبحانه وتعالى لا يحل في مخلوقاته، فقد ثبت أنه بذاته في السماء فوق العرش، وعرشه فوق الماء، والماء فوق السماء السابعة، وهو سبحانه في سمائه يدبر أمر مخلوقاته، ويعلم ما هم عليه.

قال أبو عمر الطلمنكي: (أجمع المسلمون من أهل السنة على أن معنى قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ الحديد:٤. ونحو ذلك من القرآن أنه علمه، وأن الله تعالى فوق السماوات بذاته مستو على عرشه كيف شاء. وقال أهل السنة في قوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ طه:٥. إن الاستواء من الله على عرشه على الحقيقة، لا على المجاز) [1].

وقال أبو زرعة الرازي: (إن الله ﷻ على عرشه بائن من خلقه كما وصف نفسه في كتابه وعلى لسان رسول الله ﷺ بلا كيف، أحاط بكل

(١) انظر العلو للعلي الغفار ص٢٤٦، ومجموع الفتاوى لابن تيمية ٣/٢١٩.

شيء علما، وإنه تبارك وتعالى يرى في الآخرة، يراه أهل الجنة بأبصارهم ويسمعون كلامه، كيف شاء، وكما شاء) [1].

وقال أبو نعيم الأصبهاني: (طريقتنا طريقة المتبعين للكتاب والسنة وإجماع الأمة. ثم قال: فما اعتقدوه أن الأحاديث التي ثبتت عن النبي ﷺ في العرش، واستواء الله يقولون بها، ويثبتونها من غير تمثيل، ولا تشبيه ولا تكييف، وأن الله بائن من خلقه، والخلق بائنون منه، لا يحل فيهم، ولا يمتزج بهم، وهو مستو على عرشه في سمائه، دون أرضه وخلقه .. وقال أيضا: وأجمعوا أن الله فوق سماواته، عال على عرشه مستو عليه، لا مستول عليه كما تقول الجهمية أنه بكل مكان، خلافا لما نزل في كتابه) [2].

وقال أبو الحسن الأشعري في قوله تعالى: ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ الملك:١٦. في الجمع بين الاستواء وكونه في السماء : (السماوات فوقها العرش، ولما كان العرش فوق السماوات، قال أأمنتم من في السماء لأنه على العرش الذي فوق السماوات، وكل ما علا فهو سماء والعرش أعلى السماوات، وليس إذا قال: ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ يعني جميع السماوات، وإنما أراد العرش الذي هو أعلى السماوات) [3].

---

(١) انظر اجتماع الجيوش الإسلامية ص ١٤٥، نشر دار الكتب العلمية بيروت.

(٢) انظر مجموع الفتاوى ٥/٦٠، والعلو للعلي الغفار للذهبي ص٢٤٣. والصواعق المرسلة لابن القيم ٤/١٢٨٦.

(٣) الإبانة عن أصول الديانة لأبي الحسن الأشعري ص١٠٥.

وقال يحي بن معاذ الرازي: (إن الله على العرش بائن من خلقه، قد أحاط بكل شيء علما، وأحصى كل شيء عددا، لا يشك في هذه المقالة إلا جهمي رديء، أو هالك مرتاب، يمزج الله بخلقه، ويخلط منه الذات بالأقذار والأنتان) [١].

وقد أضل الجهم بن صفوان خلقا كثيرا، وتبعه على قوله رجل يقال له واصل بن عطاء. وآخر يقال له عمرو بن عبيد، وإليهما ينسب مذهب المعتزلة، فما هي قصة المعتزلة؟ وكيف نشأت؟ وما أصولهم في العقيدة؟ وكيف دعوا الناس إلى القول بخلق القرآن؟ وكيف امتحنوا أئمة أهل السنة، وقتلوا كثيرا من أهل الإيمان؟

• ظهور المعتزلة وقوة انتشار المدرسة العقلية.

علمنا مما سبق أن الجهم بن صفوان قدم عقله ورأيه على الأدلة القرآنية والنبوية، عندما أجاب السمنية بجهله إجابة خاطئة كاذبة، وزعم أن الله بذاته في كل مكان، وأنه لا صفة له حتى لا يشبه الإنسان، ثم نظر هذا المفتون إلى نصوص القرآن، فما تصور أنه يوافق مذهبه جعله حجة وبرهانا كدليل ثان، وما خالفه صرح برده وتعطيل نصه من القرآن.

وقد تبنى فكر الجهمية واصل بن عطاء، وعمرو بن عبيد، وإليهما

---

(١) انظر مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية ٥/٤٩، واجتماع الجيوش الإسلامية لابن القيم ص١٧٠. والعلو للعلي الغفار للذهبي ص١٩٠.

ينسب مذهب الاعتزال، فالمعتزلة هم أتباع واصل بن عطاء الغزال (ت: ١٣١هـ) الذي كان تلميذا للحسن البصري. وكان متكلما مفوها بليغا، على الرغم من كونه كان عاجزا عن النطق ببعض الحروف، فكان ينطق الراء غينا. فينطق: شراب بارد، شغاب باغد.

ومن عجيب ما كان من واصل بن عطاء الغزال، أنه كان يخلص كلامه وينقيه من حرف الراء، لقدرته العجيبة على انتقاء الكلام حتى قال أحد الشعراء من أتباعه يمدحه:

عليم بإبدال الحروف وقامع:
لكل خطيب يقلب الحق باطله [١].

وقال آخر:

ويجعل البر قمحا في تصرفه:
وخالف الراء حتى احتال للشعر
ولم يُطِقْ مطرا والقَول يَعْجُله:
فعاذ بالغيث إشفاقا من المطر [٢].

كان واصل بن عطاء ضمن الطلاب في حلقة شيخه الحسن البصري، وهو من علماء السلف الصالح، فجاء إلى الحلقة رجل من

---

(١) وفيات الأعيان وأنباء الزمان لأبي العباس شمس الدين بن خلكان ٦/٧، وانظر معجم الأدباء لياقوت الحموي (٥/٥٦٨)، والكامل في اللغة والأدب لأبي العباس المبرد (٣/١٤٣).

(٢) السابق ٦/٨، وانظر سير أعلام النبلاء ٥/٤٦٤، والكامل في اللغة ٣/١٤٣.

عامة المسلمين يسأل عن الحكم الشرعي في مرتكب الكبيرة؟

ومعلوم أن أهل السنة والجماعة يقولون بأن مرتكب الكبيرة مسلم فاسق، لا يخرج عن الملة. والخوارج يقولون: مرتكب الكبيرة كافر بالله العظيم مخلد في النار، وقبل أن يجيب الشيخ البصري قام واصل بن عطاء دون أدب ولا حياء، وقال: إن الفاسق من هذه الأمة لا هو مؤمن ولا هو كافر، هو في منزلة بين المنزلتين [١].

أجاب واصل بن عطاء بعقله دون احترام لشيخه، ودون علم أو نظر في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، عند ذلك رده الحسن البصري وبين حكم مرتكب الكبيرة. وبدلا من أن يرجع إلى شيخه ويعتذر عن سوء أدبه أخذته العزة بالإثم، واعتزل الحسن البصري، وجلس إلى سارية من سواري المسجد في البصرة، وانضم إليه بعد ذلك رجل آخر يقال له عمرو بن عبيد، واجتمع إلى واصل بن عطاء أراذل الناس من أتباع الجهم بن صفوان، فكان الحسن البصري يقول: اعتزلنا واصل، اعتزلنا واصل، وكان بقية طلاب العلم من تلاميذ الحسن البصري يطلقون عليهم المعتزلة، فارتسم عليهم هذا الاصطلاح عند عامة المسلمين [٢].

وكان هؤلاء المعتزلة يدعون الزهد والصلاح، والنصح والإصلاح، وكان لهم صلة بالحكام في الدولة العباسية. تلك الصحبة أو الصداقة بين

---

(١) انظر الملل والنحل للشهرستاني ٤٦/١، والنجوم الزاهرة ٣١٤/١ بتصرف.

(٢) التحرير والتنوير ١٥٩/١ بتصرف.

رؤوس المعتزلة والخلفاء من بني العباس، أثارت حفيظتهم في الحث على الأخذ بمشورتهم والعمل بنصيحتهم في التزام مذهبهم. وقد أدت هذه الثقة إلى بدعة كبرى وطامة عظمى مرت بالأمة الإسلامية وعصفت بها في القرن الثالث الهجري، ولا زالت تعاني من آثارها حتى الآن.

وقد أسس المعتزلة مذهبهم على خمسة أصول رنانة، وشعارات فتانة، اغتر بها كثير من المسلمين في الماضي وكثير من العلمانيين في الحاضر، وكل أصل من أصولهم ستروا تحته من أصلا من أصول البدعة، يمكن اختصار ذلك فيما يلي:

- **التوحيد الأصل الأول وستروا تحته تعطيل الصفات.**

الأصل الأول من أصولهم الخمسة التوحيد وستروا تحته تعطيل الصفات، فقد زعموا فيه أنهم أهل التوحيد وخاصتُه، والمنزهون لربهم عن التشبيه، وخلاصة رأيهم في التوحيد أن الله تعالى لا صفة له؛ لأنه منزه عن الشبيه والمثيل كما قال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١١﴾ الشورى:١١، وهذا توحيد يناقض الفطرة، ولا ينطلي إلا على أذهان السفهاء، بل هو توحيد يسخر منه جميع العقلاء، فهل يصح أن تقول مثلا، ولله المثل الأعلى: الأمير لا نظير له أبد، فيقال لك في ماذا؟ أو ما الذي انفرد به؟ فتقول: ولا شيء، أو لا صفة له أصلا.

ولا نظن أن عاقلا سوف يقبل ذلك على نفسه فضلا عن ربه،

فالعقلاء يمدحون غيرهم بإثبات الصفات التي تليق بهم. والموحدون لله حقا يحمدون ربهم بإثبات أسمائه الحسنى وصفاته العليا. أما توحيد المعتزلة فتوحيد معكوس، يزعمون فيه أنهم يمدحون ربهم وهم في حقيقة أمرهم يذمونه ويصفونه بصفات النقائص التي لا يرضاه عاقل لنفسه، وقد أداهم توحيدهم هذا إلى القول بنفي صفة الكلام عن الله سبحانه وتعالى، والقول بخلق القرآن، وزعموا أنه مخلوق كسائر المخلوقات [1].

- **العدل الأصل الثاني وستروا تحته خلق العباد لأفعالهم.**

ومعناه على رأيهم الباطل أن الله لا يخلق أفعال العباد لو كانت شرا، فعطلوا قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ۝٩٦ ﴾ الصافات:٩٦. وستروا تحت شعار العدل هذا نفي التقدير وعلم المقادير، وقالوا: إن الله لا يخلق الشر ولا يقضي به، إذ لو خلقه ثم عذبهم عليه، كان ذلك جورا وظلما، والله تعالى لا يظلم ولا يجور.

وقد يفتن العامة بأصلهم هذا كما فعل العلمانيون والماديون الذين لا يؤمنون بالتقدير وجريان المقادير، أو كما هو منتشر بين العامة من العبارات التي يرددها الفاسقون، كقول بعضهم: قدر أحمق الخطى سحقت هامتي خطاه. وهذه الكلمة كفيلة وحدها بإخراج قائلها من

---

(١) انظر المزيد عن هذا الأصل في التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع، لأبي الحسين المالطي ص٣٧، نشر المكتبة الأزهرية للتراث.

ملة الإسلام، إن كان يدرك معناها ويفهم لوازمها.

وعقيدة أهل السنة والجماعة هي الإيمان بعموم المشيئة الإلهية، وأن ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن. قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (٣٠)﴾ الإنسان: ٣٠. وقال سبحانه: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٩)﴾ التكوير: ٢٩. وقال: ﴿۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ (١١١)﴾ الأنعام: ١١١. وقال: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا (٢٣) إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ۚ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا (٢٤)﴾ الكهف: ٢٣/ ٢٤.

وهذا الأصل الفاسد الذي رفعوا فيه شعار العدل، يلزمهم فيه أن الله تعالى يكون في ملكه ما لا يريده، فيريد الشيء ولا يكون، ولازمه وصفه سبحانه بالعجز في مقابل وصفهم بالمشيئة والحرية، ونفي كونها مشيئة محدودة ومقيدة بالاختيار بين طريقين، طريق الخير أو الشر، أو طريق الإيمان أو الكفر، تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (٢) إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا (٣)﴾ الإنسان: ٢/ ٣.

وقال سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢)﴾ التغابن: ٢.

• المنزلة بين المنزلتين وفيه حكم مرتكب الكبيرة في الدنيا.

الأصل الثالث من أصول المعتزلة هو ما يعرف بالمنزلة بين المنزلتين، ويقصدون به أن مرتكب الكبيرة في الدنيا في منزلة بين الإيمان والكفر، خرج من الإيمان، ولم يدخل الكفر، فليس بمؤمن ولا كافر. وقد قرر ذلك الأصل واصل بن عطاء رأس المعتزلة لما رد على السائل في حلقة الشيخ الحسن البصري.

أما حكم مرتكب الكبيرة في الآخرة فهم يتفقون في ذلك مع الخوارج حيث يقولون بأنه مخلد في النار، ولا يخرج منها أبدا، ولا تجوز فيه شفاعة النبي ﷺ. والفرق بين المذهبين أن الخوارج يقولون بأن مرتكب الكبيرة في الدنيا كافر خارج من الملة، والمعتزلة يقولون هو في منزلة بين المنزلتين، أو بين الإيمان والكفر [1].

وقول أهل السنة والجماعة في مرتكب الكبيرة أنهم لا يحكمون على عليه بالكفر، بل هو مسلم فاسق، ولا يكفرون أحدا بذنب ما لم يستحله، ويقولون إن مرتكب الكبيرة مثل الزنا والسرقة وغير ذلك من الكبائر، تحت المشيئة يوم القيامة، إن شاء الله عفا عنه، وإن شاء عذبه .

والدليل على أن الكبيرة لا تُخرج صاحبها من الإيمان قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ

(١) انظر التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع ص٣٧ بتصرف.

بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ ﴾ النساء: ١١٦.

قال أبو الحسن الأشعري: (وأجمعوا على أن المؤمن بالله تعالى وسائر ما دعا إليه النبي ﷺ، أن الإيمان به لا يخرجه عنه شيء من المعاصي، ولا يحبط إيمانه إلا الكفر، وأن العصاة من أهل القبلة مأمورون بسائر الشرائع، غير خارجين عن الإيمان) [(١)].

قال أبو عثمان الصابوني: (ويعتقد أهل السنة أن المؤمن وإن أذنب ذنوبا كثيرة، صغائر كانت، أو كبائر، فإنه لا يكفر بها. وإن خرج من الدنيا غير تائب منها، ومات على التوحيد والإخلاص، فإن أمره إلى الله ﷻ، إن شاء عفا عنه وأدخله الجنة يوم القيامة سالما غانما غير مبتلى بالنار، ولا معاقب على ما ارتكبه من الذنوب واكتسبه، ثم استصحبه إلى يوم القيامة من الآثام والأوزار، وإن شاء عاقبه وعذبه مدة بعذاب النار، وإذا عذبه لم يخلده فيها، بل أعتقه وأخرجه منها إلى نعيم دار القرار) [(٢)].

قال أبو بكر الإسماعيلي: (ويقولون: إن أحدا من أهل التوحيد، ومن يصلي إلى قبلة المسلمين، لو ارتكب ذنبا، أو ذنوبا كثيرة، صغائر أو كبائر، مع الإقامة على التوحيد لله، والإقرار بما التزمه وقبله عن الله ؛ فإنه لا يكفر به، ويرجون له المغفرة، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ

---

(١) رسالة أهل الثغر ص٩٤.

(٢) عقيدة السلف أصحاب الحديث ص٧١ : ص٧٢.

﴿أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ (النساء:١١٦) [(١)].

- **إنفاذ الوعيد وفيه حكم مرتكب الكبيرة في الآخرة.**

الأصل الرابع من أصول المعتزلة إنفاذ الوعيد، ويقصدون به حكم مرتكب الكبيرة في الآخرة، ويعني عندهم أن الله ﷻ يجب عليه أن يعاقب مرتكب الكبيرة من المسلمين، ويخلده في النار أبد الآبدين، ولا يجوز أن يخرجه من النار بشفاعة أحد من المؤمنين، حتى لو كان الشافع هو سيد الأنبياء والمرسلين. وهم يشبهون الخوارج في قولهم: إذا توعد الله بعض عبيده وعيدا، فلا يجوز ألا يعذبهم، أو يخلف وعيده. وكأنه سبحانه مقيد لا يعفو عمن يشاء، ولا يغفر لمن يشاء، تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا [(٢)].

وأصل ضلالهم أنهم يقيسون الله ﷻ على خلقه أولا، ثم يعطلون أوصاف الله وأفعاله ثانيا، وهذا ما فعلوه في أحكام الشفاعة طبقوا نظام البشر فيها على الله، وشتان بين الشفاعة عند الناس، والشفاعة عند الله، فالشفاعة في الدنيا، قد يؤثر فيها الشافع على من يشفع عنده لعدة أسباب:

١- منها صلة القربى بين الشافع والمشفوع فيه؛ فالإنسان يشفع لأخيه وبنيه، أو لأمه وأبيه، حتى يتغاضى المشفوع عنده عن خطأه

---

(١) اعتقاد أئمة أهل الحديث ص ٦٤.

(٢) السابق ص٣٨ بتصرف.

وجرمه، ويعفوا عن وزره وذنبه، ولو خالف اللوائح والقوانين، أو قدم من لا يستحق على سائر المستحقين.

وإذا كان الإنسان ملكا، أو أميرا، أو حاكما، أو وزيرا، فمعلوم أن قرابته لهم الحظوة والقربة، ومصالحهم تقضى في لحظة، وغيرهم من الناس يقفون في الصفوف مساكين، قلقين منتظرين، ولا يجرؤ أحدهم على مخالفة القوانين، ومن هنا تظهر الفوضى والمحسوبية التي نراها في الشفاعة بين الناس.

أما رب الناس ملك الناس إله الناس فهو واحد أحد، وتر صمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد. من ادعى لله ولدا فقد شتمه وأذاه، وبسبب وحدانية الإله في الدنيا ويوم القيامة، لا ينفع الإنسان أخاه، أو ينفع أمه وأباه، ولا يشفع وقتها إلا بإذن الله، فعلاقة الأنساب والأرحام بين الأفراد، لا تسري على العلاقة بين الرب والعباد.

وروى البخاري من حديث أبى هُرَيْرَةَ ﷺ أنه قال: (قامَ رَسُول اللهِ ﷺ حِينَ أَنْزَل اللهُ ﷻ: ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ٢١٤﴾ الشعراء:٢١٤. قَال: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، أَوْ كَلمَةً نَحْوَهَا، اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ، لا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا، يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ، لا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا، يَا عَبَّاسُ بْنَ عَبْدِ المُطَّلبِ، لا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللهِ شَيْئًا، وَيَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُول اللهِ، لا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا، وَيَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ، سَلِينِي مَا شِئْتِ مِنْ

مَالي، لا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا) [(١)].

٢- ومن الأمور المؤثرة في قبول الشفاعة في الدنيا، والتي لا تقاس بها شفاعة رب العالمين، اجتماع الرعية على تنصيب حكامهم، أو قدرة المملوك علي تنحية الملك من سلطانه. فمن المعلوم أن الناس إذا اجتمعوا على خلع حاكم، أو ملك خلعوه، وإذا وُجد الرأي العام على تولية حاكم أو ملك ولوه. ولا يمكن لرئيس أو أمير أو ملك أن يصل إلى ملكه بمفرده، أو يعلو على عرشه حسب أمنيته ورغبته؛ فلا بد من وجود أعوان نصروه وإخوان أيدوه، أو صفوة من الناس أحبوه وانتخبوه، حتى أصبح رئيسا عليهم بجهدهم، أو ملكا مطاعا بعونهم، من أجل ذلك فإن الحاكم أو الملك يقبل الشفاعة ممن عاونوه بغير إرادته، ويصدر أوامره بغير ما يراه بمشيئته، وإنما يُؤثِّرون بسلطانهم على سلطانه وقدرته، فيقبل منهم الشفاعة تعطيلا للأحكام وظلما لرعيته، وربما يكون مرغما في فعله مجبورا، أو ذليلا عاجزا مقهورا، أو خائفا من خلعة عن كرسيه مذعورا. أما رب العزة والجلال فمن هو صاحب الفضل عليه؟ ومن الذي ساعده في إنشاء الخلق أو افتقر إليه؟ ومن الذي يغير شيئا من مشيئته وقدرته؟ أو يؤثر على حوله وقوته؟

٣- ومن الأمور المؤثرة في قبول الشفاعة في الدنيا والتي لا تقاس بها

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الوصايا، باب هل يدخل النساء والولد في الأقارب ٣/١٠١٢ (٢٦٠٢).

شفاعة رب العالمين، صفه النقص التي تعترى الحكام أو الأمراء والملوك، فقد يتحكم بعض الرعية في مَلِك من الملوك بسبب نقاط ضعفه وإذاعة أخباره، أو كشف ما هو مستور من سوء أسراره، فيضطر الحاكم إلى المقايضة في مقابل السكوت، ويقبل الشفاعة من المملوك أو المحكوم، ويتغاضى عن العدل ولا ينصف المظلوم.

أما رب العزة والجلال فله في ذاته وصفاته غاية العلو والكمال، وغاية الحسن والجمال، منزه عن كل نقص وعيب، وليس فيه ما يحد من علوه وعظمته، أو هيمنته وقوته، سبحانه لا سمى له في وصفه، ولا شريك له في ملكه، ولا ظهير له في تدبير شئون خلقه، من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه. كما أن جميع الخلق لو أعرضوا عن الحق أو كفروا به، فإن ملك الملوك لا يزول عن ملكه، كما هو حال الملوك في الدنيا، فإنه رب العرش العظيم، الذي لا ينعزل عن عرشه، وهو أزلي أبدي باسمه ووصفه، فالضرر والزوال يعود على من كفر بالله، ولا يعود على الله لأنه سبحانه الغنيُّ عمن سواه .

وعلى ذلك فإن الشفاعة عند الله لا يمكن أن تقاس بقياس المماثلة الذي يستخدمه الخوارج والمعتزلة، وأصحاب الملل الباطلة في قياس عالم الغيب بأحكام عالم الشهادة، فنفيهم للأدلة التي أثبتت حصولها للنبي ﷺ يدل على اعتقادهم التشبيه فيها، وأنهم لم يوحدوا الله ﷻ ويفردوه عمن سواه في مسألة الشفاعة.

• الشفاعة عند الله لها شروط لازمة.

ومن ثم كانت الشفاعة عند الله دليلا على توحيده وإثبات انفراده، لأن الشافع لا بد أن يقر بحقيقة التوحيد أولا، وأنه سبحانه المنفرد بالخلق والتدبير، وله الكمال في أسمائه وأوصافه، وله حق العبودية وحده دون سواه، ولذلك فإن الشفاعة عند الله لها عدة شروط لازمة دلت عليها النصوص القرآنية والنبوية:

١- منها أن يكون الشافع والمشفوع له كلاهما من أهل التوحيد، فإن الكافر أو المشرك لا شفاعة له أو فيه. أما الدليل على شرط التوحيد للشافع فلأن الله لا يقبل الشفاعة في المشركين، فكيف يقبل الشفاعة منهم لغيرهم؟ وأما الدليل على كون الشفاعة إنما تكون في الموحدين فقط، ما رواه البخاري من حديث أبي هريرة ﷺ قال: (قِيل يَا رَسُول اللهِ، مَنْ أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِكَ يَوْمَ القِيَامَةِ؟ قَال رَسُول اللهِ ﷺ: لقَدْ ظَنَنْتُ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَنْ لاَ يَسْأَلُني عَنْ هَذَا الحَدِيثِ أَحَدٌ أَوَّل مِنْكَ لمَا رَأَيْتُ مِنْ حِرْصِكَ عَلى الحَدِيثِ، أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِي يَوْمَ القِيَامَةِ مَنْ قَال لاَ إِلهَ إِلاّ اللهُ، خَالصًا مِنْ قَلبِهِ أَوْ نَفْسِهِ) (١).

٢- من شروط الشفاعة الإذن للشافع، فليس لأحد حق أو فضل على الله ليشفع عنده بغير إذنه.

٣- ومنها الإذن للمشفوع فيه، لأن الناس يوم القيامة تستشفع إلى

(١) البخاري في العلم، باب الحرص على الحديث ١/ ٤٩ (٩٩).

ربها، فتطلب من يشفع لها، خوفا من ردها وعدم قبولها لو أنها ذهبت إليه بمفردها.

٤- ومنها الإذن بنوعية الشفاعة، فالنبي ﷺ يُحَد له حد يتضمن نوعية الشفاعة لكل فرد، وهي أنواع كثيرة مذكورة في مواضعها.

قال ابن القيم رحمه الله: (رد الخوارج والمعتزلة النصوص المتواترة الدالة على خروج أهل الكبائر من النار بالشفاعة وكذبوا بها، وقالوا: لا سبيل لمن دخل النار إلى الخروج منها بالشفاعة ولا غيرها، ولما بهرتهم نصوص الشفاعة، وصاح بهم أهل السنة بسهام الرد عليهم، أحالوا بالشفاعة على زيادة الثواب فقط، لا على الخروج من النار، فردوا السنة المتواترة قطعا، وصاروا مضغة في أفواه الأمة، وعارا في فرقها، فإن أمر الشفاعة أظهر عند الأمة من أن يقبل شكا أو نزاعا، وهو عندهم مثل الصراط والحساب ونحوهما، مما يُعلم إخبار الرسول به قطعا، ولكن إنما أُتى القوم لأنهم في غاية البعد عما جاء به الرسول ﷺ، أجانب عنه ليسوا من الورثة) (١).

قال أبو الحسن الأشعري: (الإجماع الثاني والأربعون، وأجمعوا على أن شفاعة النبي ﷺ لأهل الكبائر من أمته، وعلى أنه يخرج من النار قوما من أمته بعدما صاروا حمما، فيطرحون في نهر الحياة، فينبتون كما تنبت الحبة في حميل السيل) (٢).

---

(١) طريق الهجرتين ١/٥٦٩.

(٢) رسالة إلى أهل الثغر ص٢٨٨.

وقال أيضا: (ونرجو الجنة للمذنبين، ونخاف عليهم أن يكونوا بالنار معذبين، أجارنا الله منها بشفاعة سيدنا وحبيبنا رسول الله ﷺ. ونقول: إن الله ﷻ يخرج قوما من النار بعد أن امتحشوا بشفاعة رسول الله ﷺ تصديقا لما جاءت به الروايات عن رسول الله ﷺ) [١].

وقال أبو سعيد الشافعي: (وأنكرت المعتزلة ذلك، وقالوا: لا يجوز الشفاعة لأهل الكبائر، وشفاعته لرفع الدرجات، لا لغفران السيئات، والدليل على بطلان قولهم، أن قبول الشفاعة للعصاة ليس مما يحيله العقل، فإن من عصى مالكه وخالقه لا يستقبح في العقل أن تتشفع إليه بعض المختصين به حتى يعفوا عنه، وإذا كان جائزا في العقل، فالسنة المستفيضة قد وردت بموجب الإيمان به، فإن حملوه على الشفاعة لرفع الدرجات، لم يصح؛ لأن في الخبر عن رسول الله ﷺ أنه قال: شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي، وفي خبر آخر أنه يجيء إليهم، فيخرجهم من النار والمطيعين لا يكونوا في النار عندهم) [٢].

وقال الآمدي: (وأما إنكار الشفاعة للمذنبين والعصاة من المسلمين، فذلك إنما هو فرع مذهب أهل الضلال في القول بوجوب الثواب ولزوم العقاب على الله تعالى، وقد بينا ما في ذلك من الخلل، وأوضحنا ما فيه من الزلل، فإن الثواب من الله تعالى ليس إلا بفضله، والعقاب

---

(١) الإبانة عن أصول الديانة ١/٢٠.

(٢) الغنية في أصول الدين ص١٧٢.

ليس إلا بعدله، وهو المتحكم بما يشاء في خلقه) [١].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: (فمن أنكر شفاعة نبينا ﷺ في أهل الكبائر، فهو مبتدع ضال، كما ينكرها الخوارج والمعتزلة، ومن قال: إن مخلوقا يشفع عند الله بغير إذنه، فقد خالف إجماع المسلمين ونصوص القرآن) [٢].

- **الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وفيه الدعوة لأصولهم.**

الأصل الخامس من أصول المعتزلة هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهذا الشعار الرنان الذي يفتتن به كل إنسان، يقصدون به الدعوة إلى أصولهم الخمسة، فالمعروف عندهم هو من اعتنق أصولهم ودان بها، والمنكَر عندهم هو اتباع مذهب السلف أهل السنة والجماعة، وقد أدى بهم هذا الأصل أن يجوزوا مسلك الخوارج في الخروج على حكام المسلمين وخلفائهم بالسيف [٣].

- **كيف ظهرت البدعة الكبرى؟**

لما تأصلت فكرة الجهم عند المعتزلة في استقلال العقل بإثبات الصفات أو نفيها، وتشبعوا بالرغبة في تعطيل النصوص وردها، محتجين بأن إثباتها يدل على التشبيه وأنواع المحال، وأن ظاهر النصوص باطل

---

(١) غاية المرام في علم الكلام ٢/٣٠٩ .

(٢) السابق ٢٧/٣٤١ .

(٣) مجموع الفتاوى١٣/١٢٦بتصرف.

واعتقاده كفر وضلال، رتبوا على هذا الأصل نفي أوصاف الكمال، فنفوا رؤية رب العزة والجلال، وردوا الأخبار وأنكروا الآثار التي ثبتت في رؤية الله يوم القيامة، وقالوا أيضا بنفي صفة الكلام عن الله، وجعلوه عاجزا عن التكلم بالقرآن، بحجة أنه لو كان متكلما في زعمهم، لكان له فم ولسان، وأن إثبات صفة الكلام تشبيه لله بالإنسان.

وقد استفحل أمرهم، وكثر عددهم، وانتشر في البلاد خبرهم، ومن المؤسف أن بعض خلفاء الدولة العباسية قربوهم، وجعلوهم في أعلى المناصب القيادية، متعللين بأنهم كانوا يجادلون المخالفين مجادلة عقلية، وكانوا يغلبون الزنادقة والشيعة والجبرية في كثير من المناظرات الكلامية، وأن شيوخ الحديث تعجز عن ذلك.

وفي بداية القرن الثالث الهجري تصادق المأمون بن هارون ـ وهو من أبرز خلفاء الدولة العباسية ـ تصادق مع بعض دعاة المعتزلة، وذلك قبل أن يكون خليفة المسلمين، فقرب إليه رجلا يقال له بشر بن غياث المريسي، ذا أصل يهودي، وكان هذا الرجل قد نظر في صفات الله بالفكر الجهمي، فغلب عليه، وقال به، وانسلخ من دواعي التقوى والإيمان، وأعلن القول بخلق القرآن، ودعا إليه حتى كان عينَ الجهمية في عصره، وكان عالَمهم المقتدى بأمره، فمقته أهل العلم وناظروه، وحكم عليه بعضهم بالفسق وكفروه.

تقوم فكرة الجهمية في القول بخلق القرآن على منهجهم في نفي الصفات الواردة في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ومنها صفة الكلام،

فهم زعموا أن الله لو كان متكلما لكان له فم ولسان، ومن ثم لا بد من نفي صفة الكلام عنه طلبا للتوحيد.

وقد وصل الأمر ببعضهم إلى محاولته تحريف القرآن حتى لا يؤمن بتلك الصفة، فقال لأبي عمرو بن العلاء أحد القراء السبعة: أريدك أن تقرأ هذه الآية: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ١٦٤﴾ النساء:١٦٤. بنصب لفظ الجلالة، وذلك ليكون موسى عليه السلام هو المتكلم، أما الرب عنده فلا يتكلم؛ لأن الكلام لا يكون إلا بفم ولسان حسب زعمه، فقال أبو عمرو: هب أني وافقتك في ذلك، فماذا تفعل بقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ الأعراف:١٤٣. فبهت المعتزلي! [(١)].

ومعلوم عند السلف أن الله يتكلم بكيفية تليق بجلاله، يعلمها هو ونجهلها نحن، لأننا ما رأيناه، وما رأينا له نظيرا؛ فهو سبحانه كما قال: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١١﴾ الشورى:١١.

ولا يلزم من إثبات صفة الكلام التشبيه والتجسيم، كما هو اعتقاد المعتزلة، بل أخبرنا الله تبارك وتعالى أن بعض المخلوقات تتكلم بدون فم أو لسان، فقال تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٦٥﴾ يس:٦٥. فنحن نؤمن أنها تتكلم، ولا نعلم كيف تتكلم، قد أنطقها الله كما أنطق كل شيء.

---

(١) السابق١٦٨.

ولذلك قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾﴾ فصلت:٢١. فالأيدي والأرجل والجلود تتكلم بلا فم يخرج منه الصوت المعتمد على مقاطع الحروف، ولكن قياس الخالق على المخلوق، قياس تمثيلي، أو قياس شمولي، قياس فاسد، لا يجوز في باب العقائد الغيبية.

كما أن صفة الكلام من لوازم الكمال، وضدها من أوصاف النقص، والله سبحانه وتعالى له الكمال المطلق في أسمائه وصفاته، ولهذا ذم بني إسرائيل لاتخاذهم عجلا إلها من دون الله، وأول عيبة ذكرها الله له، كونه لا يتكلم، فقال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾﴾ الأعراف:١٤٨، فكان عجز العجل عن الكلام من صفات النقص التي يستدل بها على عدم ألوهيته، ومن ثم إذا كان الكلام وصف كمال لدى المخلوق، فالخالق أولى بوصف الكلام والكمال منه.

وقد أثبتت نصوص القرآن والسنة صفة الكلام لله ﷻ، فالآيات والأحاديث التي لا حصر لها تدل على أن الله يتكلم متى شاء، وإذا شاء وكيف شاء، وأنه سبحانه يتكلم بحرف وصوت يسمع، سمعه جبريل من الله ﷻ، وسمعه موسى ﷺ، وسمعه محمد ﷺ، فلا عبرة بقول المعتزلة في زعمهم إن القرآن مخلوق، خلقه الله، ولم يتكلم به؛ فإنهم

يعارضون القرآن وما جاء في صريح النصوص كقوله تعالى:

﴿ ۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ﴾ البقرة:٢٥٣. وآيات القرآن أكثر من أن تحصى.

وعند البخاري ومسلم من حديث عدي بن حاتم ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (ما منكم من أحدٍ إلا سيُكلمهُ ربهُ، ليس بينَهُ وبينَهُ ترجمان، فينظرُ أيمنَ منهُ، فلا يرى إلاّ ما قدَّمَ من عمله، وينظرُ أَشْأَمَ منه، فلا يَرَى إلا ما قدَّمَ، وينظرُ بين يديه، فلا يرى إلاَّ النارَ تِلقاء وجهه، فاتَّقوا النار ولو بِشقِّ تمرة) (١).

(١) رواه البخاري في كتاب التوحيد، باب كلام الرب ﷻ يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم ٦/٢٧٢٩ (٧٠٧٤)، ومسلم في كتاب الزكاة، باب الحث علي الصدقة ولو بشق تمرة أو كلمة طيبة ٢/٧٠٣ (١٠١٦).